



أوليا جلبي ورحلته القدس: بين التوثيق والاحتفاء بدور آل عثمان

أ.تحسين يقين

كاتب وناقد فلسطيني.

ألّف الرحالة أوليا جلبي الملقّب بابن بطوطة العثماني كتابًا ضخماً في القرن السابع عشر، أي قبل 350 عامًا بعنوان (سياحت نامه)، دوّن فيه رحلاته إلى مدن الإمبراطورية العثمانية، ومنها القدس⁽¹⁾.

ولد الرحالة العثماني في إسطنبول عام 1611 وتوفي عام 1979، واشتهر برحلاته ومدوناته. زار جلبي فلسطين أكثر من مرة، إحداها حين دخل السلطان سليم إلى القدس..

القدس في بداية الحقبة العثمانية الجديدة

ظهر عُمران القدس على مستويات دور العبادة، والمقامات، والمدارس، والمحاكم، وآبار

(1) صدر الكتاب عن دار باب العمود للنشر والتوزيع عام 2022، حيث تمت ترجمة الجزء الخاص بالقدس في الكتاب إلى اللغة العربية، ووقع في 159 صفحة من القطع الصغير. والكاتب هو درويش محمد ظلي المولود عام 1611، المعروف بأوليا جلبي.

ترجم الكتاب من اللغة العثمانية إلى اللغة التركية: إبراهيم أدهم بولات. وترجمه من التركية إلى العربية عارف مفتي. قدم للكتاب د.عمر قوج بكيت، أستاذ التاريخ في جامعة مرمره.

الجمع، ما يعني أنه قدّم بانوراما شاملة للقدس القديمة، مركزًا بشكل خاص على الحرم القدسي وما عليه من عناصر عمرانية.

ابتدأ أوليا جلبي بالحديث عن القدس بإيراد معلومات تاريخية عامة عن القدس، مشتملة على مراحلها التاريخية وصولاً إلى عهد السلطان سليم الأول الذي استلم مفاتيح القدس. لذلك، فإننا هنا نجد أنفسنا متبعين لوصف القدس من خلال نص أوليا جلبي، ملتزمين بتتابع السرد الوارد في الكتاب.

كما ركّز على الجوانب الإدارية والمالية، كذلك جاء على ذكر تفاصيل حياة المسيحيين، خاصة في المناسبات الدينية.

ابتدأ بالحديث عن القدس واصفًا إياها بـ«قلعة القدس الشريف»، ذاكراً تاريخها وميزاتها: «كل كتب التاريخ تطلق على هذه البقعة من الأرض، أرض فلسطين. جناب العزة في القرآن المجيد صرّح بذكرها وقدسيتها في اثنين وأربعين موضعاً. لهذا السبب كل الملل حاولت أن تكون مالكةً للقدس، فبذلك تعرضت قلعة القدس للكثير من الحصار ما يفوق المائة مرة، مما جعل القلعة تشهد دماراً كبيراً. استمر ذلك لغاية زمن السلطان سليمان ابن السلطان سليم، حيث بنى قلعة حصينة من الحجر بمشاركة اثني عشر سنجقاً مع لالا مصطفى باشا، ثم أمر الباشا ببناء قلعة كبيرة من جديد من الحجارة القوية، فكانت قلعة حصينة منيعة يعجز اللسان عن وصفها ومدحها» (الكتاب، ص: 46).

وصف محيط كامل القلعة ووصف داخلها، بدقة من ذلك: «هذا التاريخ كُتب بخط رفيع على كل من الأبواب والأبراج، وفي عمود كل زاوية».

ثم راح يعدّ المسافات، كأنه يحمل معه مقياساً، ولعله كذلك، وإلا كيف وثق هذا الكم الكبير من تعداد المسافات.



وهنا يذكر الكاتب تفسيرات معينة تتعلق بالبرج المنسوب لسيدنا داود، في الوقت الذي تستمر كاميراته في الوصف:

«يعدّ البرج الموجود في زاوية الطرف اليميني للباب هو البيت المبارك، والبرج الذي بناه النبي داود بنفسه. واحترامًا للنبي داود فإنه لغاية الآن لا يسكن فيه أحد. وله باب حديدي وهو برج خزينة وجبخانه. كل حجر فيه شديد الصلابة، ويبلغ ارتفاع كل حجر ما بين خمس إلى عشرة أرشين. لا شك أن هذا من صنع العمالقة» (الكتاب، ص: 51).

قبل البدء بـ«بيان الجامع الأقصى الكبير، المسجد قديماً»، راح أوليا جلبي، من خلال أسلوبه، بتقديم معلومات تاريخية قبل البدء بالوصف، فجعل أول من بناه سيدنا داود، ولا ندري بالطبع على أي مصدر اعتمد، كما فسّر من خلال المعلومة السبب في البناء: «أنه في زمان النبي داود ابتلي بنو إسرائيل بالطاعون، وبدعاء النبي داود ذهب الطاعون عنهم، فبني المسجد الأقصى في ذلك المكان» (الكتاب، ص: 54).

وهنا يورد معلومة تداولت حول بناء الجن للمسجد الأقصى، كما ذكر عن المسجد الإبراهيمي:

«وبعد أن أصبح (سليمان بن داود) سلطاناً على كل الكائنات، أمر العمالقة فبنوا المسجد الأقصى. استغرق إتمامه وقتاً طويلاً. عندما كان النبي سليمان يتمّ بناء الجامع وكان متكئاً على عصاه وإذ يأتي الأمر «ارجعي إلى ربك» سورة الفجر، 28 لتصعد روحه إلى جنة العليين. لم يكن لدى أي مخلوق علم بهذا، لكن أثناء تنظيف المسجد الأقصى فطن لذلك حكماء سليمان وآصف برخيا فأعطوا الجن والعمالقة الإذن بإنهاء العمل... ثم سقط النبي سليمان بعد نخر السوس لعصاه. فقام كل العلماء بدفنه بجانب أبيه النبي داود. وكُتِب ذلك في العديد من الكتب الموثوقة» (الكتاب، ص: 54).

وحين ينتقل، تصبح عيونه كاميرا دقيقة تسجل بل تحسب المسافات، ولا ندري لم كان

يعدّ المسافات، ربما لأنه يصف لآخرين يقرؤون. ويستأنف وصفه لوصف الأعمدة التي تعتليها القناطر ذات العقد القنطري وتقع فوقها القباب عند طرفي الجامع الذي يصف ألوان زجاجه ونوافذه.

«ينتقل بعدها لمسجد قبة الصخرة، وهنا نجده يمهد لذلك بربطها مع سلاطين العثمانيين، «وفي ليلة مباركة رأى السلطان حضرة النبي في منامه. أمره الرسول بقوله: [يا سليمان، تعيش 48 سنة وتغزو وغزوات كثيرة، ونسلك لن ينقطع إلى يوم القيامة، وقد نلت شفاعتي. ابذل مال هذه الغزوة لمكة والمدينة وأنشئ قلعة للقدس الشريف حتى تحمي أولادك من هجوم الكفار عليها. واجعل القدس عامرة بسكانها، وأحسن لفقرائها بالصرر والعطايا...» (الكتاب، ص: 60).

بعدها يذكر أوامر السلطان سليمان: «فقام بجمع رؤساء المهندسين ومهرة صنعة المرمر وأمهر النقّاشين في الشام ومصر وحلب وجلبهم، ليزينوا القدس والصخرة» ولم ينس وصف ذهب القبة (الكتاب، ص: 61).

وهو يقرن الحديث برحلة الإسراء والمعراج، بأوصاف «صخرة الله» بما بقي من أثر للرسول الكريم: يُقال إنّ آثار رأسه الشريف وركبته الشريفتين لا زالت واضحة على الصخرة الشريفة» (الكتاب، ص: 60).

كما يذكر معلومة شائعة عن صعود الصخرة: «عرج بالبراق للسّموات العلاء، لكن بعد ارتفاعه قليلاً سمع من خلفه ضوضاء، فالتفت ورأى صخرة الله خرجت من مكانها، حيث صرخت تقول (يا محمد، اجعلني معك في حضرة الحق). وفي الحال أجاب حضرة النبي (يا صخرة الله قف معلقاً بأمر الله)، وبعد قوله ذلك وقفت الصخرة عند ذلك الارتفاع الذي وصلت إليه، وبإذن الله إلى الآن بقيت معلقة دون أن تكون متصلة بشيء. لا زالت معلقة بين السماء والأرض لذلك تُسمّى بالحجر المعلق» (الكتاب، ص: 67).



ينتقل للحديث عن مغارة مسجد القبة والمقامات، ونراه يفسح مجالاً لوصف سجاد المسجد:

«السجاد الموجود في هذا المسجد للتعبد لا نظير له حتى في قصر الملك. لغاية الآن لا يوجد على وجه البسيطة سلطان من غير آل عثمان اعتنى بالزينة والزخارف ليجعل من المكان جنة، فزخارف بهزاد أصبحت مشهورة بين الملوك وكأنها زخارف بيت عروس صيني. ولا يوجد صدقة جارية فتحت القلوب ولا مثل لها كالصدقات التي قدمها سلطان آل عثمان لبيت الله» (الكتاب، ص: 71).

وهو بتكرار ذكر آل عثمان، يؤكد مذهبه في التبشير بالحكم الجديد للقدس، لإسباغ حالة من الهيبة الدينية على سلاطين العثمانيين.

وهو في مكان آخر يذكر تمكنه من زيارة القدس عدة مرات منها، عام 1648 للميلاد، عند اعتلاء السلطان محمد الرابع للعرش، حيث يبدو هنا أنه كان مقرباً من آل عثمان.

وبالرغم من استقصائه للمسجد الأقصى، وانتقاله إلى مسجد قبة الصخرة، إلا أنه يعود مرة أخرى للمسجد الأقصى، ثم باحة «صخرة الله الشريفة»، وما فيها من قباب ومدارس وأبواب منها: باب مريم، يبقى الهنود في أرائكه. من ثم يأتي باب حطة، حيث نزلت الآية «وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ» سورة البقرة، 58. ثم يأتي باب حطة الصغير وفي نهاية قصر الباشا يأتي باب الناظر. هذه الأبواب الخمسة تفتح لجهة الشمال وهي أبواب خشبية. بعد ذلك باب الغوانمة وباب الحديد. نزلت الآية الشريفة تتحدث عن الحديد. «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ» (سورة الحديد، الآية: 25) (الكتاب، ص: 77).

ولعلنا هنا نلاحظ التدايعات اللغوية، في إيراد آيات قرآنية لها علاقة باسم الأبواب. ولا ندري مدى العلاقة بينهما، إلا أن ذلك يبدو كان شائعاً. وهو يكمل:

«باب قطانين وباب المتوضئين، وباب السلسلة، هذا الباب مؤلف من طبقتين بجانب بعضهما البعض، وهو ذو دفة نحاسية. كما يسمون هذا الباب بباب المحكمة، وهو باب

مكتظ جداً. ثم باب المغاربة، هو باب صغير ودفته حديدية. من أسفل قصر الباشا لغاية هذا المكان يوجد ستة أبواب، وكلها مطلة على الغرب. ثم يأتي المسجد الأقصى والجدران الشرقية للقلعة، ففي هاتين المنطقتين لا يوجد أي باب لأن فيهما منطقة منحدرية. الأبواب العشرة الآتية الذكر هي أبواب تلك الباحة العظيمة» (الكتاب، ص: 78).

وهو يرسم لنا الفضاءات جميعها، ما بين ساحة المسجد الأقصى وأبواب البلدة القديمة، كذلك يصف الغرف المستخدمة للتدريس، والتي ما زال جزء منها باقياً، وهنا نتعرف أنها كانت كثيرة العدد: الباحة الكبيرة هذه محاطة من أطرافها الثلاثة ومن أسفل باحة الصخرة بغرف المدارس والتي يبلغ مجموعها مئتي غرفة.

ونفاجأ بعدد المدارس والزوايا:

«ويصل عدد المدارس والزوايا الموجودة ضمن المدينة بصغيرها وكبيرها إلى 360 مدرسة وزاوية. ومنها مدرسة باب حطة البالغة الجمال كما يوجد فيها مئذنة. بعدها مدرسة باب الناصرية، وهي تقع في الزاوية أسفل قصر الباشا، كما أن لها مئذنة جميلة. وعند باب الغوانمة، يوجد مدرسة الغوانمة. ولا يوجد لهذه المدرسة مئذنة... المدرسة السلطانية موجودة عند باب المتوضئين. وهي مدرسة أكبر وأجمل من سابقتها» (الكتاب، ص: 79).

ثم ينتقل لذكر محكمة الشريعة المحمدية فوق باب السلسلة. ونرى هنا انتقال الرحالة خارج فضاء البلدة القديمة وباحة المسجد الأقصى، للحديث عن الكنيسة الجثمانية، الواقعة إلى جهة الشرق، كذلك الطور وخصوصاً المقبرة، ومقام النبي داود، ومقام سلمان الفارسي، ثم بئر سلوان: «ماء سلوان موجود في أسفل المصلى، يُنزل إليها بسلم حجري فيه ثلاثون درجة حيث توجد المغارة، وهي ماء حياة بلذة ماء زمزم. هضمه سهل، وشربه خفيف وهو مُغذٍّ، مشبّط للجوع، فمن يشربه يشعر بالشبع كأنه أكل طعاماً» (الكتاب، ص: 93).

وقد اخترت الاقتباس القادم، لما فيه من وصف مكثف، منظومة جامعة للعمران، بما



اشتمل من مساجد ومدارس وزوايا ودور حديث ودور قراء، ومدارس للأطفال، والتكايا، والخانات والحمامات وأوقاف وسبل:

«عاشق الترحال يعلم أن القدس الشريف تبدو مدينة صغيرة، لكن فيها ما مجموعه 240 محراباً. لا يوجد جامع غير المسجد الأقصى، والجامع داخل القلعة، أما الباقي فهو عبارة عن مساجد المدراس والزوايا. يوجد سبع دور للحديث، وعشر دور للقراء، وأربعون مدرسة للأطفال والطرق السبعون لكل منها يوجد له تكيّة. من أولئك: عبد القادر الجيلاني، وسيد أحمد البدوي، وسعدي، والرفاعي، كما يوجد تكيّة للمولوية عند الوجه الداخلي لباب العامود، وهي مكان يستحق الزيارة. ويوجد في كل التكيّات الأنفة الذكر دراويش، حيث يقام في ليالي الأيام المباركة المديح المحمدي، بالفعل هي أوقاف رصينة. كما يوجد فيها ستة خانات، خان غافرية، وخان حسكية، وخان إمارة وخان سوق، هذه هي الخانات الكبيرة المشهورة فكل منها كالقلعة. ويوجد فيها ستة حمامات. ومن تلك الحمامات التي ماؤها وهوؤها جميل، حمام الأم مريم، وحمام السلطان، وحمام الشفاء مع أنه حمام قديم إلا أن من يدخله مريضاً ويغتسل فيأذن الله يشفى من ذلك المرض. حمام عين، وحمام صحراء، وحمام بطريك. حمام بطريك عادة ما يرتاده النصارى فلذلك سُمّي بهذا الاسم وهو قريب من حيّهم. وتوجد فيها ثلاث إمارات، خيراتها وفيرة وكثيرة للوافدين والذاهبين. وإمارة حسكية هي عبارة عن وقف متين أصيل. ومجموع السبل فيها ثمانية عشر، كلها من صنع سليمان خان» (الكتاب، ص: 98).

وهنا ينتقل للفضاء المسيحي، متحدثاً عن كنيسة القيامة ودير الأرمن، وهو يصف منبراً ببنائها:

«باختصار ليس على وجه هذه البسيطة كنيسة كبيرة يؤخذ منها العبر وتستحق الزيارة كهذه الكنيسة. وهي تشبه دير إستيفان الموجودة في مدينة بتش من بلاد الألمان. لكن يوجد

في هذه فن وزينة ونقوش أكثر من تلك. كل جدرانها مزينة بالنقوش التي تبهر الناس مع أنه يوجد في زماننا الكثير من أساتذة النقش والضالعين في فن العمارة، لكن لا يوجد بناء كهذه الكنيسة يظهر فيه فن المرمر والنقش عليه، كما الموجود على باب ونوافذ وقناطر هذه الكنيسة. وكأن المرمر الأبيض نُقش كما ينقش ويقص فخري على الورق. إنها نقوش تجعل عقل الإنسان يقف عاجزاً أمامها. ويوجد على كل من طرفي الباب ثلاثة أعمدة من المرمر الخام. كما يوجد في الطرف اليساري للباب سلم حجري ذو سبع عشرة درجة تؤدي إلى قصر من صنع قسطنطين، فيه فن راق وقبة عالية. وهو قصر تُؤخذ منه الدروس والعبر، حيث إنه يشبه قصر كسرى. تمت كسوة الباحة أمام بابه بالمرمر الأبيض» (الكتاب، ص: 103).

وهنا، قبل التوجه جنوباً إلى بيت لحم والخليل، نجده يصف الطبيعة المقدسية تحت عنوان «بيان ماء وهواء القدس»، وهو هنا يبدع في الوصف الذي عزز سياق الجانب الطبيعي للمدينة المقدسة.

يتحدث عن الهواء وكروم الثمر، والناس، على اختلاف مستوياتهم، كذلك النساء اللواتي راح يصفهن، كذلك العام والشراب، والصناعات ومنها الصابون، والعنب الذي بالرغم من صخرية الأرض، إلا أن مذاقه مميز، حيث يبدو أنه قد شهد موسم العنب، ولا شك أن الرحالة متمكن من وصفه:

«هواؤها عليل، ماؤها زلال وهو من صدقات السلطان سليمان. كرومها كثيرة، هواؤها العليل جعل وجوه الناس فيها حمراء. فهم أصدقاء للغريب، وأهل ذوق، كما يوجد بينهم رجال الطرق وأهل الحال. يرتدي فقراؤهم العباءة الملونة وفراجة من الجوخ والصوف الأبيض. أما أغنيائهم فيرتدون الجوخ الملون والصوف الأحمر البراق. وأما نساؤهم فهن في غاية الأدب، يضعن على رؤوسهن قلنسوة من الذهب والفضة وفوقها غطاء أبيض، ويلبسن في أرجلهن الجزم.. أما الأطعمة والأشربة والصناعات المشهورة بها: بادئ ذي بدء



خبز الحصة الأبيض، والأنواع المتعددة من العنب والصابون المعطر ومن العطريات البخور. تُؤخذ الهدايا لكل الولايات من المباخر وأواني حفظ العطر النحاسية. مع أن أرضها صخرية لكن عنبها في غاية اللذة. جبلها وحجرها هو زيتون. حتى إن المفسرين يقولون إن المقصود بالآية الشريفة (والتين والزيتون) / سورة التين، 1 / القدس الشريف وطور زيتا. أرضها هضبة جميلة يهطل على جبالها الثلج. كما أنها مدينة كبيرة محاصيلها وافرة وتنوع الناس لا حساب له» (الكتاب، ص: 115).

للكتاب الرحلوي هنا استشعارات غنية، التقط منها وخلالها موجودات المكان، وإن ركز على ما يبدو على الجوانب المقدسة ودور آل عثمان.

وقد اختتم أوليا جلبي حديثه عن القدس، وهو يودعها خارج باب الخليل، ليصف ما يراه هناك:

«عند الخروج من القدس من باب الخليل للخارج وفي طرف القبلة يوجد، بقعة الصخرة: وفيها لغاية الآن 43000 كرم، ويوجد أبراج للكروم في 1500 كرم منها. أما باقي الأبراج فهي مهذّمة، لكن كرومها عامرة. فكل منهم يأكل ويشرب في الكرم مع عائلته وأطفاله لمدة شهرين أو ثلاثة» (الكتاب، ص: 116).

ولعل هذه الفقرة، تصف لنا بشكل مختصر عن جانب الزراعة في القدس، حيث تظهر زراعة العنب بشكل خاص، وما ارتبط بها من حياة اجتماعية، حيث ظاهرة «التعزيب» الفلسطينية الشامية، والتي تعني انتقال الأسر إلى الكروم لتمضية الصيف فيها، لما تتوفر من إقامة طيبة تسعد بها الأسر.

في المنهجية

عند الحديث عن أسلوب الرحالة أوليا جلبي، من الضرورة الانتباه إلى أن هذا النص قد كتب قبل أربعة قرون. لذلك فإن تناوله يأتي من منظور وصفي تحليلي، لا من أجل الحكم

عليه من خلال معايير الكتابة اليوم.

ولعلّ أدب الرحالة، منذ القدم، هو خليط ما بين الوصف والاهتمام الذاتي، كذلك فإن الرحالة كان يتحدث عن الأماكن وما فيها، من خلال ما يعرفه من معلومات تاريخية، وروايات شفوية.

الوصف، في الكتاب بشكل عام، وفي الجزء الخاص بالقدس، هو عمود النص الرحلويّ. وهو وصف دقيق يعتمد فيه الكاتب على الدقة، لدرجة حساب المسافات، داخل الأماكن المقدسة، وهو يذكرنا بالرحالة العربي ابن بطوطة وآخرين.

يمهّد الكاتب عند الحديث عن الأماكن بالمعلومات التاريخية، دون أن يوثق الكتب التي أخذ منها، ويبدو أنها من غير كتاب واحد. وهو يعتمد بشكل لافت على القرآن الكريم والحديث الشريف والكتب الدينية، الإسلامية والمسيحية.

كما ذكر تفسيرات علمية، تناقلها الناس، مثل بناء العملاقة للمسجد الأقصى، وهو يخلط ذلك ببناء المسجد الإبراهيمي ذي الحجارة الضخمة. كذلك ثمة معلومات غير منطقية، مثل ما ذكره عن لقاء هيلانة بالكاهن الذي أخبر عن المكان الذي صلب فيه المسيح، بناء على العهد الجديد، بالرغم من الفارق الزمني المقدر بأربعة قرون.

كما اعتمد على المقارنة، من خلال ما عرف من المظاهر العمرانية التي زارها في العالم، وقد ظهر ذلك خلال مقارنة كنيسة القيامة بدير استيفان.

في النص ذكر لما أنجزه السلاطين العثمانيون تجاه القدس، منهم السلطان سليم الأول والسلطان سليمان، والسلطان أحمد الذي اعتنى بمسجد قبة الصخرة.

لم نجد البعد الشخصي في النص، سوى قيام الرحالة بالصلاة في الأماكن المقدسة، والأماكن الدينية. كما لم نجد وصفاً لحياة السكان سوى النزر القليل، أو ما ارتبط بالمناسبات التي يشارك فيها الناس بطبقاتهم.



في النص استطراد في مواقع كثيرة، جاءت من ثقافة الكاتب، لكنها لا تضيف للأماكن التي يتحدث عنها الكثير، سوى كمعلومات وانطباعات.

تميّز أوليا جلبي باختياره مسارات رحلوية، بدءاً من القدوم من شمال فلسطين، فدخل القدس، فالبلدة القديمة المعروفة الآن، التي هي القدس في ذلك الوقت. وبالرغم من تركيزه على التفاصيل العمرانية والمعمارية المتعلقة بالمكان المقدس، إلا أنه سلك مسارات متنوعة داخل القدس، داخلها، وفي جهاتها داخلياً، إسلامياً ومسيحياً، كذلك خارجها، خاصة إلى جهة الشرق حيث الطور والجثمانية، أو الجنوبية حيث مكان الانطلاق إلى بيت لحم والخليل. فهو لم يدخل أي مسار إلا وأعطاه حقه في الوصف الدقيق.

وفي ظل مساراته الجغرافية، فقد واكب ذلك مسارات زمنية، حيث إنه كان يذكر صفحات من التاريخ القديم وصولاً للمرحلة العثمانية، والتي نراه مبشراً بها مادحاً لما قدمه آل عثمان للقدس.

وأخيراً أقتبس قول جلبي:

«لو كتبنا كل زيارات الأنبياء التي قمنا بها في القدس لفاق ذلك مجلداً وكان هذا مانعاً لنا من كتابة رحلاتنا»، للوصول إلى هدف كتابه، الذي كان للقدس منه نصيب كبير، ألا وهو «وصف المكان المقدس، وما قدم آل عثمان له».